أهل السلوك وموقفهم من النظر العقلي*

د. نشأت ضعيف
مدرس في قسم أصول الدين

تمهيد:

قيل عن التصوف: إنه ملاذ اليائسين من قدرة العقل على كشف الحقائق والوصول إلى كنهها . وإن أهل السلوك لا يعتمدون على العقل ولا الشرع في الوصول إلى المعرفة، وإنما يعتقدون أن الذوق الفردي هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها، وهو الذي يُقوّم حقائق الأشياء ويحكم عليها بالخير أو الشر، بالحسن أو القبح، بأنها حق أو باطل.

وما داموا يجعلون الذوق الفردي هو الحاكم والقيّم على المسميات وأسمائها فإنهم يقعون في التناقض فيضعون لبعض المسميات أسماء معينة ثم ينسخونها بذكر نقيضها مرة أخرى.

ومن جهة أخرى: فإنهم يدينون بعدد عديد من أرباب وآلهة فصارت كل طائفة تؤلّه ما ارتضاه كاهنها صنماً له وتعبده بما يفتريه هواه من خرافات!! ويجمعهم عل الوحدة هوى واحد وغاية واحدة هي «القضاء على الإسلام والجماعة الإسلامية»(١). وقد استند أصحاب هذه الدعوى لإثبات صدق دعواهم إلى عدة شبه:

منها: قول جلال الدين الرومي (فلتدرك بقلبك علم النبي بلا كتاب ولا أستاذ ولا معلم)(٢).

ومنها قول ابن عربي (إن من يبني إيمانه على البراهين

* مصادر الشريعة الإسلامية ليست العقل البشري ولا الذوق والمواجيد وهما أمران خاضعان للتأثر بعوامل مختلفة. مصادر الشريعة هي القرآن أولاً والسنة الصحيحة ثانياً ثم المصادر الاجتهادية بضوابطها وشروطها التي أجمع عليها الأئمة المجتهدون، على أن للعقل دوره في فهم النصوص واستنباط الأحكام، كما أن للذوق والمواجيد أثرها في الفهم والتطبيق. وكل ما أدى بصاحبه إلى المخالفة أو الخروج عن الكتاب والسنة في الفهم أو السلوك فهو مردود أياً كان اسمه وصفته. (المجلة)

(١) هذه هي الصوفية ص ٢١ عبدالرحمن الوكيل. (٢) أسس الفلسفة ص ٤٠٥ د. توفيق الطويل

والاستدلالات لا يوثق في إيمانه لأنه يستمد ذلك من الفكر والنظر)[1].

ومنها: ما رواه بعضهم عن ابن عربي ـ أيضاً ـ واعتراضه على العلامة فخر الدين الرازي بقوله: (إن العلم الكامل لن يجيء إلا عن طريق الله رأساً من غير وساطة وليس عن طريق الرواة والأساتذة)[2].

ومنها قولهم (من كان شيخه الكتاب كان خطؤه أكثر من الصواب).

ومن كل ما سبق يستنتج بعض الباحثين المحدثين أن الصوفية لا يستقون معارفهم من أساتذة أو رواة عن أساتذة حتى ولو كانوا أهل ثقة.

يقول بعضهم: (الصوفية لا يستمدون علمهم عن الكتب ولا يتلقونه عن معلم ولا يستقونه عن خبرة أو نحوها)[3].

وينتهي هذا الباحث إلى القول صراحة (العلم الذي يقوم على الفكر والتأمل ليس في زعم الصوفية علماً صحيحاً يوثق به)[4].

وهذا البحث سيكشف النقاب عن صحة هذه الدعوى أو كذبها، وسيلقي الضوء على هذه القضية ليصل ـ على الأقل ـ إلى مدى اقتراب هذا الادعاء من الصواب أو الخطأ، فإن كانت الدعوى تقوم على الصواب أو تقترب منه فواجبنا أن ندعمها عن طريق تأييدنا لها، وأن نستخدم كل الوسائل في نشرها، وإن كانت تحمل الخطأ أو تجنح إليه فالأمانة العلمية تقتضينا ان نفندها ونرد على الشبه التي اعتمد عليها

---

(١) نفسه وانظر كتاب الجماعات الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة ص ٨٤.

(٢) نفسه ص ٤٠٦.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.. وانظر ص ٨٤ من كتاب الجماعات الاسلامية في ضوء الكتاب والسنّة فهو ينقل عن الجنيد قوله: (أحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه).

أصحابها، وسيكون جل اعتمادنا في المناقشة والرد على أقوال المحققين من الصوفية والمعتدلين منهم والذين لهم القدم الراسخة في عالم المعرفة، وقبل أن نتعرض لجوهر قضيتنا ـ أرى أن من الضروري ـ أن أعرض بايجاز لأرجح الأقوال وأشهرها في تعريف التصوف لغة واصطلاحاً، ثم أشير إلى نشأته، ومصدره، ثم أبين مفهوم النظر العقلي، وبعد ذلك نستوضح رأي أصحاب الشأن في الاتهام الذي وجه إليهم أو الدعوى التي ادعاها عليهم خصومهم.

مفهوم التصوف في اللغة:

يرى بعض الباحثين المحدثين قلة جدوى البحث في أصل هذه الكلمة (تصوف) في اللغة العربية من الناحية الإيجابية، وما الآراء والفروض التي تعرض في هذا الصدد إلا لإشباع الفضول، ويعلل ذلك بقوله: (إن الاتجاه الاشتقاقي الذي تبنّته مدرسة خاصة في الفكر العربي لم يثبت نجاحاً تاماً في هذا الميدان سوى توجيه الأنظار إلى إمكانية تلمس أصل كل كلمة من الناحية الاشتقاقية التي تترابط فيها المعاني الفرعية بأصل معنوي معين)(١).

غير أن وجهة النظر هذه تتصادم مع النتائج الخطيرة التي تترتب على تحليل الكلمة وبيان أصلها الاشتقاقي، ومن بين هذه النتائج: الوقوف على مصادر التصوف هل هي أجنبية أو إسلامية؟

وعلى ضوء ذلك يتأتى لنا الوصول إلى مصادر النظريات المتعددة التي تداولها بعض المتصوفة مثل: نظرية الحلول والاتحاد، وقدم الأرواح والتناسخ، ونظرية الفناء، وغيرها من النظريات الأخرى التي كانت محل خلاف وجدل بين معظم الباحثين في الماضي والحاضر(٢).

---

(١) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً. د. محمد كمال جعفر ص: ١.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام حـ٣ ص ٤٣ د. علي سامي النشار.

هـذا وقـد اختلف البـاحثـون حـول الأصـل الاشتقـاقي لكلمـة (تصوف).

فمنهم من يرى بأنها من الصُّفّة، ومنهم من قرر أنهـا من الصفـاء، في حين قـال بعضهم إنهـا من الصف، في الـوقت الـذي يـرى فيـه آخرون: أنها من الصوف.

وقد كان لكل فريق وجهة نظره وأدلته التي بنى عليها رأيه.

وقد ناقش عدد كبير من العلـماء الآراء السـالفـة الـذكـر وفنـدوهـا وانتهى رأي جمهرتهم إلى ترجيح الرأي الأخير الذي يقرر أصحابـه أن التصوف من الصوف والصوفي يكـون نسبـة إلى لبس الصـوف، وقـد استند هؤلاء إلى أن الزاهدين والمتنسكين حاولوا الإعراض عن الدنيا، بلبس الصوف لأن في لبسه تحقيقـاً لأهـدافهم التي تقـوم على التقشف والخشونة، فهو بطبيعته متين رخيص خشن، لا يحتاج لابسه في الشتاء إلى غيره، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً، لأنه لا يبلى على وجه السرعـة، ولأنه من وجهة أخرى يوحي بالتواضع اللائق بمن يطلب السلوك إلى الله ـ تعالى(١) كما أن الصوفية ـ أنفسهم لم يثوروا على التسميـة في حـد ذاتها. ومن ثمة فالكلمة موفقة ـ كما يقول بعض البـاحثين المحـدثين ـ كل التوفيق في الانتساب إلى التصوف(٢).

ولم ينس هؤلاء العلماء لترجيح هذا الرأي أن يدعموا وجهة نظرهم بما عرف عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كـان يستحب لبس الصوف تواضعاً وأن سيدنا عيسى عليه السلام كان كذلك(٣).

---

(١) من القائلين بهذا الرأي صاحب كتاب «اللمع» والكلابـاذي والسهـروردي وابن الجـوزي وابن تيمية وابن خلدون. ومن المحدثين الشيـخ مصطفى عبـدالـرازق و. أ. د. زكي مبـارك ود. عبدالحليم محمود ومن المستشرقين فون كريم وفولدكه وجولد زيهر ونيكلسون مـاسينـون وآربري وغيرهم.

(٢) أنظر: أبحاث في التصوف الإسلامي للمرحوم الدكتور عبدالحليم محمـود: ص ١٥٨ من كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالي.

(٣) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ـ د. محمد كمال جعفر ص: ٤١

يقول الدكتور محمد كمال جعفر:

«ومع التسليم بصحة فرض نسبة التصوف إلى الصوف باعتباره شارة دالة في وقت معين على منهج خاص، غير أن العلاقة ربما يقال: انها تنوسيت بين أهل التسمية وحقيقة المسمى»(١).

تعريف التصوف الإسلامي:

من المعروف ـ عند المناطقة ـ أن من مهمة التعريف إزالة اللبس في المعاني، ويكون التعريف بالحد التام إذا تأتى تصور الأشياء بكنهها وحقيقتها وهذا ما أشار اليه (اسبنوزا) بقوله: (لكي يمكن القول عن تعريف من التعريفات إنه كامل لا بد أن يوضح الماهية الداخلة للشيء)(٢).

وهذا النوع الكامل من التعريف لا يكون إلا للماهية التي علم وجودها، أو العلوم التي علمت مسائلها وتحقق الصدق بوجودها ومن ثم فلا تتعدد حدودها(٣)، وهذا ما أشار إليه الشيخ ابن تيمية بقوله: (الحدود الحقيقية ليست إلا للأشياء المركبة ولا تكون إلا حيث يعلم وجود الشيء نفسه، كما أن الشيء الذي يحدّ بها ليس إلا حداً واحداً بناء على وحدة صفاته الذاتية)(٤).

ولما كان التصوف لا ينطبق عليه هذه الأشياء السالفة الذكر كان من المتعذر إن لم يكن من المستحيل تعريفه بذاتياته.

ومما يؤكد ذلك قول بعض الباحثين المحدثين (دلت التجارب على أن الاعتماد على التعريفات في فهم الشيء المعروف فهماً صحيحاً أمر غير سليم، لأن التعريفات كثيراً ما تفشل في تصوير الشيء المعرف

---

(١) نفسه: ص ٤.

(٢) مدخل إلى المنطق الصوري ص ٩٨.

(٣) تلخيص ما بعد الطبيعة ص ١٣.

(٤) الرد على المنطقيين ص ١٩٢.

تصويراً دقيقاً لا سيما إذا اتصل هذا الشيء بحقائق روحية أو نفسية)[1].

ومن هنا قرر المناطقة أن المعنى الذي لا تركيب فيه يمكن حده بطريق شرح اللفظ أو بطريق الرسم، وهذا يعني أن يكون للشيء الواحد أكثر من حدّ. بل إن الإمام الغزالي ذكر أن الحدّ اللفظي يتصور أن يكون له ألف حدّ، وذلك يختلف بكثرة الأسامي في بعض اللغات وقلتها في بعضها الآخر كما يختلف باختلاف الأمم والأفراد بل قد يرد عن الشخص الواحد كثير من التعاريف تتراوح بين الاختصار والاسهاب، وتختلف في تصوير المعنى طبقاً لاختلاف الوقت والحال، وإذا كان الحد اللفظي يتصور أن يكون له ألف حد، فإن الحدّ الرسمي هو الآخر يجوز أن يتعدد، لأن لوازم الأشياء ليست محصورة، بخلاف الحد الحقيقي فلا يتصور، كما قلنا سابقا ـ إلا واحداً[2]، لأجل هذا وجدنا تعاريف متعددة للتصوف، فإذا كان القشيري يذكر ما يزيد على خمسين تعريفاً للتصوف[3] فإن بعض الباحثين يذكر ثمانية وسبعين تعريفاً[4]، ولم تقف كثرة التعاريف عند هذا الحد فإن الطوسي ينقل ما يزيد على مائة تعريف[5]، بل إن السهروردي يقول ـ في غير مبالغة ـ: «وأقوال المشايخ في التصوف تزيد على ألف قول»[6]، بل قال غيره: إنها زهاء ألفين[7].

---

(١) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ص ٤.

(٢) محك النظر ص ١١٥ للغزالي.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٨١.

(٤) في التصوف الاسلامي وتاريخه نيكلسون ترجمة د. ابوالعلا عفيفي ص ٢٨ وينظر التصوف المنشأ والمصادر: ص٣٦.

(٥) اللمع ص ٤٧ للطوسي وينظر التصوف المنشأ والمصادر ص ٣٦.

(٦) عوارق المعارف ص ٥٧.

(٧) التصوف المنشأ والمصادر: ص ٣٧ نقلا عن مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق النواوي.

ومردّ هذه الكثرة يعود إلى أن تصوير الحقائق الروحية أو النفسية تصويراً دقيقاً أمر متعذر إن لم يكن أمراً متعسراً.

يضاف الى ما سبق: أن بعض من عرف التصوف عرفه من منطلق ما يشعر به في مواجده ومشاهداته.. ومن المسلمات عند الصوفية أن التجربة الصوفية باعتبارها ثمرة معرفة مباشرة لا يمكن الاطلاع عليها أي نقلها للآخرين، لأنه إشارات وعطايا وهبات يعرفها أهلها من بحر العطاء الذي لا ينتهي مدده، وهذا ما أشار إليه بعضهم بقوله: (مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات)(١).

ونتيجة لاختلاف الأحوال والمقامات والأزمنة باعتبار التعبير بأحوال البداية أو النهاية وغير ذلك كثرت تعريفات التصوف وتنوعت.

وعلى الرغم من كثرة هذه التعاريف فإنه ليس من الإنصاف أن نصفها كلها بالخطأ وإنما يمكن أن يقال عنهابأنها ناقصة، أعني أنها لا تصور إلا جزءاً من الحقيقة وجانباً خاصاً تركز عليه الاهتمام(٢).

ومهما يكن الأمر: فإن جلّ التعريفات التي ذكرت قد لاتخرج عن اتجاهات أربعة:

١ ـ الاتجاه الأول: يربط التصوف بالجانب الأخلاقي(٣).

٢ ـ الاتجاه الثاني: يربطه بكثرة العبادة(٤).

٣ ـ الاتجاه الثالث: يقرنه بالزهد والتنسك(٥).

---

(١) التعرف ص ١٠٥.

(٢) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ص ٤.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٨١.

(٤) أبحاث في التصوف الإسلامي ص ١٦٣: د. عبدالحليم محمود.

(٥) تلبيس ابليس: ص ١٥٩، عوارف المعارف: ص ٥٣.

٤ ـ الاتجاه الرابع: يجمع أصحابه فيه بين الوسيلة والغاية معاً ومن ثم يربطونه بالصفاء والمشاهدة(١).

وقد ناقش بعض العلماء الاتجاهات الثلاثة الأولى وفنّدها بما لا يدع مجالاً للشك في عقمها وعدم الوصول بها إلى الغاية من التصوف في حين رجح الجمهور من العلماء الاتجاه الأخير الذي يقرر أن التصوف الإسلامي: هو (الصفاء والمشاهدة).

ولهذا التعريف شواهد عديدة من أقوال الصوفية.

ومن المعروف عندهم: أن الصفاء بعد أن يحل عند الإنسان يكون عنده الاستعداد الكامل للمشاهدة التي هي أسمى درجات المعرفة.

ومن بين الذين أيّدوا قول أصحاب هذا الاتجاه الدكتور عبدالحليم محمود(٢) والدكتور محمد كمال جعفر الذي قال: (إن هذا الاتجاه هو أكثر الاتجاهات روحية وأمسّها بجانب التجربة النفسية ذاتها)(٣). والدكتور عرفان عبدالحميد الذي قال: (والحق فإن هذه العبارة (التصوف صفاء ومشاهدة) على ما فيها من إيجاز تقدم لنا تعريفاً شاملاً متكاملاً للتصوف)(٤).

أعتقد بعد ذلك أن بعض الباحثين المحدثين قد جانبهم الصواب في قولهم (إن التوفيق بين تعاريف أهل السلوك للتصوف دونه خرط القتاد. . وإن تعريفات التصوف المتعددة تّنبىء صراحة عن حقيقة وادعاء علاقة التصوف بالإسلام وكونه روحه وعصارته)(٥).

---

(١) أبحاث في التصوف الإسلامي ص ١٦٨.
(٢) أبحاث في التصوف: ص ١٦٨.
(٣) التصوف طريقا وتجربة ومذهباً ص ٧.
(٤) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ص ١٢٣.
(٥) التصوف المنشأ والمصادر: ص٣٩.

تاريخ ظهورمصطلح التصوف:

وجدت عدة اتجاهات مختلفة حاول أصحابها بيان نشأة هذا المصطلح.

وكان من بين هذه الاتجاهات اتجاه يقرر أصحابه أنه نشأ مع نشأة الإنسان(١).

واتجاه ثان: يرى أن المصطلح وجد في العصر الجاهلي(٢)، في حين يرى أصحاب الاتجاه الثالث: أنه وجد في القرن الأول الهجري(٣)، بينما يرى أصحاب الاتجاه الرابع أن هذا المصطلح عرف في بداية القرن الثاني الهجري(٤).

وبعد مناقشات مستفيضة استقر رأي جمهور العلماء على ترجيح الرأي الأخير الذي قرر أصحابه أن ظهور مصطلح التصوف كان في بداية القرن الثاني الهجري فينقل صاحب كتاب (التصوف المنشأ والمصادر) عن القشيري قوله: (واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)(٥).

وكذلك من بين من رجح هذا الرأي الشيخ ابن تيمية الذي قال: (وفي أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن الزاهد بلفظ الصوفي)(٦).

ومما يؤكد ذلك أن كُتّاب التراجم عدوا بعض الصوفية من الطبقة الأولى من طبقاتهم ومن بينهم الفضيل بن عياض، وذو النون المصري، وإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي وغيرهم ممن كانت وفاتهم في أثناء القرن الثاني الهجري وما بعده.

---

(١) أبحاث في التصوف: ص ٢١٩.
(٢) تلبيس إبليس: ص ١٨١.
(٣) اللمع: ص ٤٢.
(٤) مجموع الفتاوى: ١١/ ٢٩.
(٥) التصوف المنشأ والمصادر ص ٤٢.
(٦) مجموع الفتاوى حـ ١١ ص ٢٩.

ومن بين من رجح هذا الرأي أيضا ابن خلدون، ثم الشيخ مصطفى عبدالرازق وغيرهم(١).

أول مَن أطلق عليه اسم صوفي في البيئة الإسلامية:

تمدنا الصادر التي أيدينا بأسماء ثلاثة عاشوا في هذه المدة التي ظهر فيها اسم مصطلح (التصوف) وهم:

جابر بن حيان، وعبدالكريم عبدك الصوفي وأبوهاشم الصوفي، وقد رجح جمهور العلماء أن أول من تسمّى بالصوفي من أهل السنة هو: أبوهاشم الصوفي: واسمه: أبوهاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي المتوفى سنة خمس ومائة من الهجرة فقد كان شديد الإخلاص، يلبس الصوف، تعلم منه سفيان الثوري كيفية ترك الرياء، ولا يظن أن هذا المصطلح لم يظهر إلا على أبي هاشم فقط بل ظهر حين كثر لبس الصوف في جماعة الزهاد فقيل عنهم صوفية ولواحدهم صوفي.

مصادر التصوف:

يقول بعض المستشرقين: إن الشقة بيننا وبين دراسة مصادر التصوف لا زالت بعيدة(٢) غير أن بعض المنكرين قرر أن مصدر التصوف الاسلامي هو الفلسفة الهندية، وبعض العلماء يذكر أن مصدر التصوف الإسلامي الأفلاطونية الحديثة(٣).

وهناك من يرى أن مصدره الفلسفات اليونانية، في حين يرى آخرون أن مصدر التصوف هو المسيحية(٤).

---

(١) أبحاث في التصوف: ص ٢٢٩.

(٢) أبحاث في التصوف الإسلامي للدكتور عبدالحليم محمود ص ٢١٣ نقلا عن ماسنيون.

(٣) التصوف المنشأ والمصادر ص ٤٩.

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام حـ٣ ص ٤٣.

وقد ناقش العلماء كل هذه الأقوال بهدوء وانتهى رأي جمهورهم إلى القول بأن مصادر التصوف هو الكتاب والسنة الصحيحة وسيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه[1] على اعتبار أن التصوف في البداية كان يعني الزهد، أو أو أن الزهد هو الذي أطلق عليه فيما بعد اسم (التصوف).

مفهوم النظر العقلي:

النظر في اللغة: هو من الألفاظ المشتركة كالعين، والقُرء، والجبن[2]، فيطلق ويراد به، الإبصار تقول: نظرت إلى الهلال فلم أره ويذكر ويراد به الانتظار. قال تعالى: (فنظرة إلى ميسرة)[3].

ويذكر ويراد به العطف والرحمة قال تعالى: (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة)[4].

وقد يراد به المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان، أي تقابلها.

ـ ويذكر ويُزاد به التفات النفس في المعقولات والتأمل فيها، وعلى هذا يكون هو والفكر مترادفين[5]. يقول التهانوي: الفكر هو: (حركة النفس في المعقولات)[6].

النظر العقلي في الاصطلاح:

هو الفكر الذي يطلب به علم أو غلبة ظن[7].

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع حـ٢ ص ٢٨٩ وانظر مقدمة كتاب الرعاية لحقوق الله ص ٥ وتاريخ التصوف الاسلامي ص ٤٨.

(٢) البيجوري على الجوهرة حـ١ ص ٤٦.

(٣) البقرة آية ١٧٩ أنظر أساس البلاغة ص ٤٥٠.

(٤) سورة آل عمران آية: ٧٦، وانظر مفردات غريب القرآن: ص ٤٩٧.

(٥) المنهج القويم في المنطق الحديث والقديم ص ٣٥.

(٦) أبكار الأفكار: ص٣٥، وانظر المواقف: ١/ ١١٩.

(٧) الرسالة الشمسية ص ١٢

أو هو: ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها الى مجهول.

موقف الصوفية من النظر العقلي:

لقد شاع بين كثير من الباحثين أن الصوفية لا يعيرون النظر العقلي أدنى اهتمام، بل إنهم يرفضونه وسيلة من وسائل المعرفة ويستعيضون عنه بالبصيرة أو الإلهام وقد استند أصحاب هذا الادعاء إلى شبه سبق أن ذكرنا بعضها في مقدمة هذا البحث.

والواقع: أن الصوفية تعتقد أن شرف الإنسان وتفوقه على سائر المخلوقات منوط باستعداده لمعرفة الله عز وجل، ومن هنا كان موضوع المعرفة من الأهداف الأساسية للتصوف والصوفية(١)، ولأجل هذا فسر معظمهم العبادة في قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(٢) بالمعرفة وهم يرون أن أول واجب على المكلف هو (المعرفة)(٣)، وسندهم في ذلك قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير العبادة في الآية السابقة بالمعرفة (ليعرفون) إن المعرفة عندهم تحتل المكانة الأولى من اهتماماتهم وخاصة المعرفة الإلهية التي هي أسمى المعارف.

إن الصوفية لا يمكن أن يرفضوا النظر العقلي في الوقت الذي يعلمون فيه علما يقينيا أن في القرآن أكثر من ثلثمائة آية تدعو للنظر العقلي وإعمال العقل(٥).

لقد كانوا تلامذة لأساتذة نجباء قبل أن يكونوا أساتذة أجلاء، ومؤلفاتهم التي أثروا بها المكتبة الإسلامية أوضح دليل على رد دعوى خصومهم في هذا الشأن ماذا يقول هؤلاء؟ حين يقال لهم: انظروا إلى

---

(١) تاريخ التصوف في الاسلام حـ٢ ص ٥٨٥.

(٢) سورة الذاريات: آية ٥٦.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤١.

(٤) اللمع للطوس ص ٦٣.

(٥) مفيد العلوم ومبيد الهموم: ص ٧.

مؤلفات الإمام الغزالي، والقشيري، وأبي طالب المكي، وابن عربي، والطوسي، وغيرهم..

لقد بدأ الغزالي كتابة الشهير إحياء علوم الدين بمائة صحيفة كلّها في بيان فضل العلم والعلماء وكذلك شأن كثير من علماء التصوف.. ألا يعلم هؤلاء المدعون أن الصوفية يؤمنون بأن أول آية نزلت من القرآن على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرته بالعلم وحضّته على القراءة والبحث والتأمل وهي قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)(١)، ألا تعلم الصوفية بحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٢).!!

إن القول بأن الصوفية لم يعتمدوا في الوصول إلى العلوم والمعارف إلا على الإلهام فقط قول بعيد عن الحقيقة، ومن بين الذين قالوا بذلك فيلسوف قرطبة «ابن رشد» فقد قال: (وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقا نظرية أعني مركبة من مقدمات وأقيسة، وإنما يزعمون ان المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالفكرة على المطلوب، ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله)(٣). وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)(٤)، وقوله (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)(٥).

نعم انهم يقولون بالإلهام ويستشهدون عليه كمصدر من مصادر المعرفة أخذاً بما يروى: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم

---

(١) سورة العلق: آية ١.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/٣ وينظر حلية الأولياء ٨/٣٢٣ وسنن ابن ماجة: ١/١٨ رقم الحديث (٢٢٤).

(٣) سورة البقرة آية: ٢٨٢.

(٤) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

(٥) سورة الأنفال: آية ٢٩، وينظر مناهج الأدلة لابن رشد نقلا عن: نشأة الفلسفة الصوفية: ص ١٤٢.

يعلم)[1]، لكنهم في الوقت نفسه لا ينكرون الوسائل الأخرى بل يؤيدون أشهرها وهو (النظر العقلي).

ومن المعلوم ان العلم الوهبي لا يحصل للمريد إلا بعد العلم المسبوق بالعلم النقلي أو الشرعي، والذي يرجع أساس التصديق به إلى النظر العقلي الذي عن طريقه عرف صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأن ما جاء به وحي من عند الله، في الوقت الذي علمنا فيه بالنظر العقلي أيضا كذب وادعاء مسيلمة الكذاب ومن على شاكلته[2]. انظر إلى ابن عربي وهو يقول (جاء الرسول وأظهر من الدلائل على صدقه أنه رسول من الله الينا فعرفنا بالأدلة العقلية أنه رسول الله فلم نشك[3].

هل بعد قول أبي يزيد البسطامي (من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان)[4]. يقال: إن الصوفية لا يستمدون علمهم من الكتب ولا يعترفون بطريق للمعرفة سوى الإلهام ولا يتلقون العلم عن معلم؟

وفي حلية الأولياء، والرسالة القشيرية وغيرهما من الكتب التي

---

(١) اللمع: ٥٩١، وإن كان أبونعيم يقول في الحلية ١٠/ ١٥: «ذكر احمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل ا. هـ بينما نجد أستاذنا الدكتور يحيى هاشم فرغل يسند هذا القول المأثور إلى الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ والنص كاملاً: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار)، ينظر بحث التحديات في مجال التربية والتعليم: : ٥٣١، د. يحيى هاشم فرغل ضمن مساق الفكر الإسلامي مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٠.

(٢) الفتوحات المكية: ١/ ٣٢١.

(٣) نفسه.

(٤) نشأة الفلسفة الصوفية. لقد أخذ البسطامي عن اكثر من ١١٣ شيخ في سورية وحدها والجنيد آخذ عن ٢٠٠ شيخ.

اهتمت بهذه القضية الكثير والكثير مما يدل على أن المعتدلين أو المحققين منهم كانوا لا يخرجون عن حد علم الشرع الذي يدعو إلى النظر.

إن كل من يقول إنهم قصروا وسيلة المعرفة على الإلهام وحده قوله بعيد عن التحقيق العلمي، وفيه مغالطة صريحة.

يقول بعض الباحثين المحدثين : (إن الصوفية عندما يقولون بطريق الإلهام فإنهم لا ينكرون غيره من الطرق الأخرى)(١).

لنتأمل أقوال المحققين فهم لنعرف قيمة هذه الدعوى التي يدعيها خصوم الصوفية والتي مؤداها أنهم ليسوا أهل نظر ولا استلال.

لقد نقد الغزالي (البسطامي) لعدم رسوخه في العلوم اللغوية والعقلية وأول قوله (انسلخت من نفس كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو).

يقول الغزالي: إن معناه أن ينسلخ عن شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله، فإذا لم يحل في القلب إحلال الله وجمال الله حتى صار مستغرقاً فيه يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقاً.. وفرق بين قولنا «كأنه هو» وقولنا «هو هو» ويختم نقده بقوله: «وهذه زلة قدم فإن من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر»(٢).

أبعَد هذا يقال: إن الصوفية ينهون عن النظر العقلي ويطعنون في العلم الذي يعقبه؟ ثم لنتأمل قول ابن عربي الذي يقول فيه: (إن الشرع لا يثبت إلا بالعقل ولو لم يكن كذلك لقال كل أحد في الحق ما شاء مما تحيله العقول وما لا تحيله)(٣).

---

(١) الوحدانية: ٣٦٢.

(٢) المقصد الأسنى ص ١٤٧.

(٣) الفتوحات المكية نقلاً عن د. غلاب (المعرفة عند مفكري المسلمين) ص ٣٥.

ثم لننظر الى قوله في بيان معنى الفيلسوف والحكمة وأنّ علينا أن لا ننظر إلى من قال ولكن ننظر إلى ما قال:

يقول ابن عربي: (إن معنى الفيلسوف هو المحب للحكمة، والحكمة غاية كل عاقل، فإياك أن تبادر إلى إنكار مسألة قالها فيلسوف، وتقول هذا مذهب الفلاسفة، فإن هذا قول من لا تحصيل له إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف يكون باطلاً فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده حق، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشحونة بالحكم والتبرؤ من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر فكل ذلك علم صحيح موافق للشرائع فلا تبادر يا أخي إلى الرد في مثل ذلك وتمهّل واثبت قول ذلك الفيلسوف)(١).

ولعل هذا ما دعا الإمام الشعراني إلى أن يقول: إن كلام ابن عربي إن نظر فيه مجتهد في الشريعة ازداد علماً إلى علمه واطلع على أسراره في وجوه الاستنباط، وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده، أو لغوي، أو مقرىء، أو مصور للمنامات، أو عالم بالطبيعة، أو خبير بالطب، أو عالم بالهندسة، أو نحويّ، أو منطقي، أو صوفي، أو عالم بالحديث وطرقه، أو بعلم الأسماء والحروف وأسرارها، وجد لديه من العلم ما يذهل العقل ويحيره(٢).

ثم لننظر إلى الإمام الغزالي الذي قال عنه الدكتور محمد جعفر: (ولقد أظهرت دراسات كثير من الباحثين كيف أن الغزالي رغم شيوع القول بأنه تنكر للعقل دافع عن العقل دفاعاً مجيداً)(٣).

أليس الغزالي هو القائل عن العقل الذي بواسطته تكتسب

---

(١) نفسه ص ٣٥٢.

(٢) نفسه.

(٣) التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص ٢٠٤.

النظريات: وإن ذم العقل فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموماً(١).

فالعلوم الأولية أو البدهية كعلم الإنسان بوجود نفسه أو بأن الواحد لا يكون قديماً حادثاً في آن واحد لا يتأتى الشك فيها فلو حكى - كما يقول الغزالي - عن نبي من الأنبياء أنه أقام معجزة وادعى ما يناقض هذه البدهيات فلا يتوقف العقل في تكذيب الناقل أو يجزم بأن القائل ليس بنبي(٢).

أبعد هذا يستساغ أن يقال: إن الغزالي لجأ إلى حضن التصوف ليأسه من قدرة العقل على كشف كل حقيقة وعن عدم ثقته بعصمته وبالتالي عن جعله الحكم الذي ترضى حكومته في كل شيء(٣).

لا: إن الغزالي لم يلجأ الى التصوف ليستغيث به من الريب الذي نهشه ليلاً ونهاراً كما قيل(٤)، بل الصواب أنه اعترف بالطرق المخالفة لطريقة الذوق أو الاشراق غير أنه رأى أنها تعلو المعرفة العقلية(٥).

وما يقال أن الغزالي رجع في كتاب (المنقذ من الضلال) عن ثقته بالعقل واشتغاله بالمنطق مردود ذلك لأن (المنقذ من الضلال) سابق على كتاب (المستصفى) الذي ألفه الغزالي بعد المنقذ(٦). وفي كتابه الأخير يوصي بدراسة المنطق ويبين أهميته كوسيلة لدرك العلوم فهو يقول في مقدمته: (نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان ونذكر شرط الحد الحقيقي وشرط البرهان الحقيقي

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ١٥٢.

(٢) المنقذ من الضلال ص ٨٢.

(٣) المعرفة عند مفكري المسلمين ص ٣٢٢.

(٤) نفسه.

(٥) الوحدانية ص ٣٦٢.

(٦) انظر مؤلفات الغزالي: ص ٢٠٢، المستصفى رقم ٦٣، كتاب المنقذ رقم ٥٦.

وأقسامها. . وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول. . بل هي مقدمةالعلوم كلها ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا)[1].

أليس للإمام الغزالي ثلاثة كتب في المنطق هي (معيار العلم، ومحك النظر، والقسطاس المستقيم)؟ إنه لم يتراجع عن ثقته بالمعرفة العقلية ولم يشك في الضروريات الأولية التي تكتسب بواسطتها العلوم النظرية، إنه يقول في الإحياء وهو في قمة تصوفه (اعلم أن الفكر هو إحضار معرفتين ليستثمر منهما معرفة ثالثة)[2]. ثم يقول: إن المعرفة قد تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة ـ كما كان للأنبياء عليهم السلام ـ وذلك عزيز جداً وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر[3]، فكيف يقال إن الغزالي ذم المنطق في أخريات حياته[4]. ؟!!

كيف يقال إن الإمام الغزالي أهمل الجانب العقلي في حياته العلمية وهو الذي ضرب الفلسفة ضربة لم تقم بعدها لها قائمة حتى الآن في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة)؟ وعلى الرغم من محاولة ابن رشد ـ فيلسوف قرطبة ـ الرد على التهافت بكتابه (تهافت التهافت) إلا أنها محاولة لم تنجح، كيف يقال إنه أنكر النظر العقلي وهو الذي تصدى لمنكري النظر وناقشهم مناقشة مستفيضة موضوعية، بعيدة عن السفسطة، وخالية من التعصب في كتابه المعروف (فضائح الباطنية).

نعم: إنه يرى: أن العقل له حدود يقف عندها ولا يمكنه أن يتعداها مهما تكن درجة ذكائه ومهما يتوافر له من الدراسات، لكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن المعرفة الحاصلة عن طريق الإلهام تتعارض مع العقل وقوانينه التي خلقها الله فيه، وفرق كبير بين تعارضها مع العقل، وبين عجزه عن الوصول إليها، فوراء العقل أطوار كثيرة لا

---

(١) المستصفى: ١/ ١٠.

(٢) الإحياء: ١/٧٩٦.

(٣) نفسه ص ٢٧٩٨.

(٤) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص ٣١.

يعرف عددها إلا الله تعالى، حتى هذه المعرفة الاشراقية يمكننا أن نقول عنها: إنه قائمة على الأقيسة البرهانية القطيعة وفي هذا دلالة على عدم انكارهم للنظر العقلي(١)، ومما ينبغي أن نعلمه أن عند الصوفية المعرفة الحاصلة عن طريق الإلهام أو الاشراق معرفة غير ملزمة للغير، كالمعرفة الحاصلة عن طريق النظر العقلي القائم على الضروريات(٢). وفي ضوء هذا يمكننا أن نفسر قولهم إنها ليست عامة لكل الناس لكنها لا تتعارض مع القوانين العقلية الضرورية بمعنى أن الصوفي لا يكاشف بأمر يحيله العقل ويمنعه.

وأخيراً نختم بحثنا بقول سيد الطائفة الذي ينصح فيه التلاميذ باختياره أساتذة أصحاب كفاءات ومنه يتضح لنا قيمة حرصهم على التعليم والتعلم واحترام المعلم وتقديره (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)(٣).

والذي ننتهي إليه:

هو أن الصوفية لا ينكرون النظر العقلي، ولا يذمون العقل كآله لإدراك العلوم وفهمها، ذلك لأنهم يعلمون أن حصر وسائل المعرفة في الإلهام يكون سبباً في ركود حركة الفكر في الاسلام، كما أن فيه نسخاً لدور العقل في عمليات النقد والتقويم والتجريح وما إلى ذلك وما ورد عنهم غير ذلك فهو:

- إما مدسوس عليهم.

وإما أن يكون ظاهره يخالف باطنه.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٨ ص ١٣٨٣.

(٢) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ص ٢٦٩.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤٣١.

لأن بعضهم كان يتحدث أحيانا بالرمز والإشارة[1].

ـ وإما أن تكون النصوص التي يفيد ظاهرها اتهام العقل والنيل من طريق المعرفة الجوهري وهو (النظر) صادرة من بعض متطرفيهم!! وهؤلاء لا يعول على أقوالهم.

وبهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك خطأ هذه الدعوى التي تقول (العلم الذي يقوم على الفكر والتأمل ليس في زعم الصوفية علماً صحيحاً يوثق به).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) فصوص الحكم ص ١٨.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ المعرفة عن مفكري المسلمين د. محمد غلاب ـ الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ م.

٣ ـ هذه هي الصوفية. عبدالرحمن الوكيل الطبعة الرابعة ـ بيروت سنة ١٩٨٤ م.

٤ ـ أسس الفلسفة د. توفيق الطويل لجنة التأليف والنشر بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤.

٥ ـ التصوف طريقا وتجربة ومذهبا د. محمد كمال جعفر نشر دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٨٠.

٦ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د. علي سامي النشار ـ دار المعارف الطبعة السابعة سنة ١٩٧٨ م.

٧ ـ أبحاث في التصوف الإسلامي د. عبدالحليم محمود في نهاية كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالي الطبعة الثانية ـ بيروت سنة ١٩٨٥ م.

٨ ـ المدخل إلى المنطق الصوري د. محمد مهران دار الثقاف بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م.

٩ ـ الرد على المنطقيين ابن تيمية طبع بمباي (الهند) سنة ١٩٤٧ م.

١٠ ـ تلخيص ما بعد الطبيعة ابن رشد (الحفيد) تحقيق د. عثمان أمين سنة ١٩٥٨ م.

١١ ـ محك النظر للغزالي الحلبي ـ الطبعة الأولى.

١٢ ـ الرسالة القشيرية (أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري النيسابوري تحقيق معروف زريق وعلي عبدالحميد بلطه جي دار الخير الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨ م.

١٣ ـ التصوف المنشأ والمصادر ـ إحسان الهي ظهير ـ نشر إدارة ترجمان السر الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦ م.

١٤ ـ عوارف المصارف، عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣.

١٥ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف أبوبكر محمد الكلاباذي تحقيق محمود أمين النواوي القاهرة سنة ١٩٦٩م.

١٦ ـ تلبيس ابليس ـ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي البغدادي تحقيق لجنة من كبار العلماء دار إحياء الكتب العربية.

١٧ ـ نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د. عرفان عبدالحميد فتاح ـ بيروت سنة ١٩٧٤.

١٨ ـ مجموع الفتاوى حـ١١، حـ١٠، حـ٣٦، للشيخ ابن تيميمة إعداد محمد عبدالرحمن بن قاسم طبع السعودية.

١٩ ـ تاريخ التصوف في الإسلام د. قاسم غني ترجمه عن الفارسية صادق نشأت ومراجعة احمد ناجي ـ النهضة المصرية سنة ١٩٧٢.

٢٠ ـ اللمع أبي نصر عبدالله السراج الطوسي تحقيق د. عبدالحليم محمود وزميله طبع دار الكتب سنة ١٩٦٠ م.

٢١ ـ مفيد العلوم ومبيد اهموم جمال الدين أبي بكر الخوارزمي المطبعة اليوسفية بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ.
٢٢ ـ إحياء علوم الدين حـ١ طبع دار الشعب ـ القاهرة سنة ١٣٨١هـ.
٢٣ ـ الفتوحات المكية محيي الدين ابن عربي ـ دار الطباعة القاهرة سنة ١٣٦٩هـ.
٢٤ ـ الوحدانية مع دراسة في الأديان والفرق د. بركات دويدار ـ النهضة المصرية سنة ١٩٧٨م.
٢٥ ـ المنقذ من الضلال للإمام الغزالي بتحقيق د. عبدالحليم محمود.
٢٦ ـ المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى نشر مكتبة الجندي سنة ١٩٦٨م.
٢٧ ـ المستصفى من علم الأصول للغزالي المطبعة الأميرية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢ هـ.
٢٨ ـ مؤلفات الغزالي د. عبدالرحمن بدوي القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
٢٩ ـ المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت د. محمود حمد زقزوق الانجلو سنة ١٩٨٥م.
٣٠ ـ الرعاية لحقوق الله أبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي تحقيق عبدالقادر عطا بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥م.
٣١ ـ ابن عطاء الله السكندري وتصوفه د. أبوالوفا الغنيمي التفتازاني الانجلو الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ م.
٣٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني بيروت ـ لبنان ـ دار الكتب العلمية.
٣٣ ـ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني د. عبدالرحمن بدوي وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م.
٣٤ ـ البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد الشيخ ابراهيم البيجوري القاهرة سنة ١٩٦٥.
٣٥ ـ أساس البلاغة الزمخشري طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٢ م.
٣٦ ـ المنهج القويم في المنطق الحديث والقديم د. محمد علي سلامة دار الطباعة الحديثة بالقاهرة.
٣٧ ـ الرسالة الشمسية للقزويني بشرح قطب الدين محمود بن محمد الرازي في تحرير القواعد المنطقية ـ الحلبي سنة ١٩٤٨ م.
٣٨ ـ أبكار الأفكار للآمدي تحقيق د. احمد المهدي نسخة بمكتبة اصول الدين القاهرة.
٣٩ ـ المواقف بشرح السيد الشريف الحرجاني القاضي عضد الدين عبدالرحمن الايجي ـ دار الطباعة العامرة.
٤٠ ـ الجماعات الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة سليم الهلالي. زياد الديبح الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م.